موقع مصطفى نور الدين عطية

في الأدب وقلته ! ... بقلم مصطفى نور الدين



نشر بجريدة التجمع (القاهرة)، السبت 17 يونيو 2006

السبت 19 كانون الأول (ديسمبر) 2009, بقلم مصطفى نور الدين عطية

في الأدب وقلته ! ... بقلم مصطفى نور الدين

نشر بجريدة التجمع (القاهرة)، السبت 17 يونيو 2006

يشهد الفكر في كل صوره الاضطهاد منذ قرون في كل مرة شطح فيها الخيال لإبداع عالم من الأحلام لمجتمع آخر غير ذلك الذي يعيش فيه الإنسان و يشعر بأنه كان من الأفضل له أن يولد في قرن آخر، كل علي ذوقه فمن شاء الشهادة اختار عصر الرسل ومن أراد المسرة اختار عصر العباسيين. فلا احد يمنحه عصره السلام إذا ما تجرأ بابتكار مدن فاضلة.

فالمبدع يخرج عن المألوف بدخوله عالم الخيال أو بنقله لهموم وتجارب ذاتية. فليس كل إنتاج وردي هو الإنتاج الأكثر تعبيرا عن الخير أو الأكثر صدقا. "فمحلاها عيشة الفلاح" ليست إلا أكذوبة شعرية ترن في الأذن موسيقى وإيقاعا ومتناقضة مع ابسط واقعية رثة.

والأسئلة تتابع "كجلمود صخر حطه السيل من علي": إذا لم نقرأ ما يكتبه من نختلف معهم فكريا أو عقائديا فما معني الحوار ومن يقوم بمناقشة هذه الآراء المخالفة إذا لم تترجم أو تنشر ؟ ولما الخوف من فكر آخر إن كانت صلابة ما نؤمن به لا شك فيها ؟ وهل يملك أي فكر حقيقية مطلقة في شؤون البشر والمجتمعات والتاريخ والفلسفة والفن والعلوم... ؟ وإذا وجد هذا الفكر المطلق فلماذا يرهق البشر عقولهم منذ ولدوا للبحث ؟ وما معنى "أطلبوا العلم ولو في الصين" ؟

هل هناك خلط وتعمية ؟ الخلط من اعتبار المبدع يعيد إنتاج الواقع المعاش ولكن مع ضرورة تجميله ونصر الخير دائما على الشر. فأولا لم يكن هو الدور الذي يحدده المبدع لعملة في أي زمن. فهو ينتج عالما خاصا به أو بشخصياته والموضوع الذي يجمعها. فهو عالم إبداع يختلف من مبدع لآخر. وحتى بتصور الفنان أو الكاتب، في لحظة يتناول قضية واقعية بالفعل فمن الذي يلزمه أن يصل بها إلى رسالة تدعو للإيمان إذا كان ذلك ليس منطقيا أي لا محل له في العمل ولا معنى.. ولماذا لا ينتصر الشر ؟ ألا

ينتصر الشر في الحياة أبدا ؟ إن مثله في ذلك مثل الرسام لا يعتبر الورود في لوحته مضاهية للورود في الحديقة و إلا لسخرنا من فان جوخ ومن مونيه واعتبرنا بيكاسو مجنونا. فالمبدع يترجم إحساسا داخليا أو يلفت الانتباه ربما ليس للورود وإنما للضوء والظل أو لفراشة تحوم.

في اللغة واللغو

ولماذا لا تتكلم الشخصيات ألفاظا نابية إذا كان ذلك إحدى سماتها الشخصية ؟ أليس في شوارع المجتمعات وحواريها من يتكلم هذه اللغة. ولماذا أنتجت المجتمعات ألفاظا لغير الاستعمال وهل للإنسان أعضاء بجسده لا يوظفها كل لغرضه وهذا التوظيف له كلمة للتعبير عليه ؟ فالفم للكلام وللصمت وللبصق وللتقبيل... فهل يكون من المفيد وأكثر حشما أن يكتب المبدع:"فمك جميل... أعطيني ملعقة لو سمحتي"..بدلا من القبلة.

إن الخوف هو من الكلمات التي تستمر مسجونة في رؤوسنا خاضعة للرقابة في البيت وفي المجتمع وعندما يبلغ الطفل استقلاله يبدأ في التعامل مع الألفاظ كما حاكها المجتمع البشري ذاته.

لقد تعارف الجميع على أن ألفاظا بذاتها لو قيلت لتقبلها الجميع لأنها ذكرت بالقواميس ولو قالها الكاتب باستخدم مرادف لها في اللغة الشعبية وصف بالانحطاط.. فما العمل ؟ لماذا يتحمل الإنسان مشاهد الحروب والدماء لجثث ممزقة ولا يقبل منظر يفيض بالعاطفة والرقة تجسده لوحة أو قصيدة أو مشهد عناق وحب ممتلئة بالإنسانية ؟

نحن والجهات الأربعة

وفي الفكر والعلوم.. هل هناك قضايا لا يجب التعرض لها ؟ وماذا نفعل حيال الاكتشافات التاريخية والعلمية وما تكشف عنه من معارف جديدة؟ أليست كلها معطيات ثقافية تدخل في تاريخ الإنسانية ؟ وسواء كانت حقيقة أو أساطير ما الضرر منها ؟ ولماذا تسيء إلى الأديان من قريب أو من بعيد ؟ هل الأديان ولدت من عدم فكري أم من محصلة البحث الروحي للإنسان لفهم كيف وجد وسبب وجوده وغايته؟ إن طرح مثل هذه المسائل لم يقد كل الشعوب إلى الإلحاد. والإيمان بكل القيم السماوية لم يحول الإنسان إلى بشر خيرين والواقع يكشف لنا كل يوم عن الفظائع التي ترتكب باسم الأديان في كل بقاع الأرض.

من اليسير التهجم على الغرب ونعته بأسوأ الصفات وتحميله كل المآسي والشرور التي نعاني منها ومن بينها الإمبريالية الثقافية. ولا شك بالمرة في وجود هذه الظاهرة على الصعيد العالمي وليست هناك أي قناعة بان الغرب لم يلعب ومازال يواصل لعب دورا في الهيمنة بكل أنواعها على البلدان التابعة. ولكن القضية هي أنه لو توقفنا عند هذا الحد فانه يظل نحيب لا طائل من خلفه إلا الانغلاق أمام ما يتم خارج حدودنا الجغرافية والاكتفاء الذاتي بما يدور بين حوائطنا المغلقة حولنا. أي هو انتحار ذاتي بديله ليس تقبل كل ما يحدث عند الجيران.

فالأخذ عن الغرب أو أي جهة من الجهات الأربعة لا معنى له إن ظل نقلا ولم يتحول إلى إبداع ذاتي داخل المجتمعات المتلقية ولكنه يظل إبداع له معني فقط عندما لا يبدأ من الصفر.. فتاريخ الحضارات ليس إلا البدء من حيث انتهى الأكثر تطورا. أي إعمال القدرة علي جلب كل ما في العالم من معارف والمشاركة في تطويرها وليس فقط جلبها لاستهلاكها كما يحدث منذ قرون في البلدان التابعة. فالعولمة التي تخيف العالم تخيفه حينما يظل في دور المستهلك لا الفاعل. ولأنه يخضع لها و لا يشارك في سن الحدود التي يتعامل بها بداخلها ويشارك في إعطائها سمات من لديه.

فلو أستمر القهر الداخلي للإبداع ويجد ما يصوغه في رفض الانفتاح على الثقافات الأخرى بحجة الإمبريالية الثقافية ومخالفتها للقيم الاجتماعية السائدة التي تضمن السلام الاجتماعي فسوف يكون إذن إنغلاق داخلي وعلى الخارج أيضا. أي "تحنيط" الذات الوطنية يحذر، دون مبرر، من خطورة خيال المبدعين في كل مجال على "العفة والحياء والإيمان" ولا يرى الواقع الفعلي لمجتمع يجمح الابتكار والانفتاح على عالم أصبح من المستحيل الانغلاق فيه.

فالخوف الحقيقي من الإبداع في كل العصور ناتج من احتمال أن يأتي ليعبر عن الواقع الذي لا يريد المجتمع أن يراه مجسدا إذ سيكون كمرآة. فالمرآة التي لا تعكس صورة من أمامها لا أهمية ولا وجود لها وكأن من ينظر فيها "مصاص دماء" حسبما يقال عن "دراكولا" في الحكايات الخيالية. فكبت في الواقع لا بد أن يوازيه كبت في الخيال في الأحلام في التصورات وخلق " نفوس ميتة". وإذا لم يكن لهذا القول مصداقية ما فما الذي يهابه المجتمع من أن يجمح خيال الشعراء والكتاب والفنانين لإبداع عالم غير ملموس وان يتطرق العلم إلى كل الفرضيات التي يتوصل إليها؟ وهل بقدرتنا كبح بحث الإنسان عبر معارفه المتقدمة لتناقضها مع تصورات شعرية للعالم ؟

قطف الرؤوس ؟

لماذا هذا الخوف من الكلمة حتى ولو كانت مجرد أضغاث أحلام ؟ وما يكون الإبداع إذا ما بتر كل مبدع ما أراد أن يعبر عنه ليخلق عالما خياليا للتعبير عن فكرة أو عن قضية ؟ وما الخوف الذي يحمله المفكر إذا طرح أفكارا جديدة ؟ ولماذا الخوف من الرسام إذا رسم لوحة خيالية أو تجريدية؟ أليست النتيجة هي التماس مبدعين خصي ؟
فمجتمع لا يريد أن يرى ولا يريد أن يسمع إلا ما توهم أنه قد تعارف عليه هو مجتمع فاقد البصيرة لا يمكن أن يتمتع بدينامكية جدلية مجددة ليس فقط في الواقع وإنما أيضا في أحلام اليقظة.

لم يكن موت "سقراط" إلا نتيجة الكلمة وكذا موت "الحلاج" ومعاناة "ابن رشد" و"جليلي" و"مارتن لوثر كينج" وكذا العديد من الأنبياء. برغم أن أيا منهم لم يهدف إلا إلى أهداف نبيلة اعتدت بها وكرمتها المجتمعات التي حاكمتهم أو قتلتهم.

والسؤال هو من له ملكة محاكمة آخر ؟ أليس هو أيضا يستحق المحاكمة من الذي يحاكمه لاختلافه معه في الرأي ؟ وإلي أي مدى يمكن أن نذهب بهذه القضية ؟ ألن يصبح كل اختلاف محل لمقاضاة الأخر ؟ من المصيب ؟ أنا أم الآخر ؟ ومن الذي منح أيا منا أهلية الصواب وسلطة مقاضاة الآخر ؟ عن من يعبر من يعتقد أنه مصيب ؟

لو أن رجال التشريع والقانون حملوا على من ينهب ثروات المجتمع ويحرمه من أساسيات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لشرف العقل ولكن لو حاول القانون والتشريع إلى التحول إلى سيف على رقاب من يفكرون فذلك يدعو للتساؤل: لمصلحة من ؟ وهل سنعود إلى عهد الحجاج بن يوسف الثقفي ؟

حقا، أن الأدب والفكر والعلوم كانوا في كل وقت معرضة للخطر. إذ أن "هولدرين" مسه الجنون و"نيرفال" شنق نفسه و"جليلي" كاد يدفع حياته لاكتشافه بان الأرض تدور حول الشمس وليس العكس. والتاريخ حافل بكبار المبدعين الذين تعرضوا للمحاكمات مثل بودلير من اجل ستة من قصائد "أزهار الشر" وفلوبير من اجل "مدام بوفيري". و"سقراط" مات بتهمة "إفساد الشباب" ووضع "ديدرو" في السجن بسبب كتابه "رسالة عن العمي". وتعرض "روسو" لحرق كتابه "لاميل : في التربية" في فرنسا وسويسرا وكان يقذف بالحجارة في الطرق مما اضطره في أول الأمر للفرار إلي انجلترا ثم عودته بعد عامين من المنفى والتزامه بالا ينشر كتبا أخرى في حياته ؟ ولم يستطع جويس نشر روايته "عوليس" إلا في فرنسا.

ولكن في كل الحالات القديمة والمعاصرة أعاد المجتمع، في نهاية المطاف ولو بعد زمن، لهؤلاء المبدعين مكانتهم اعتذارا لما لحق بهم من ظلم. إن الأدب العالمي لم يخل من مواجهات من هذا النوع بين المجتمع وبين ما تعارف على تسميته بأدب "الشر".

وإذا كانت بعض أشعار بودلير وفيرلين ترجمت للعربية فإن الكثير من كتاباتهما سوف تظل في أدراج المترجمين خوفا من أن يثير نشرها الزوابع من أصحاب الخلق "الحميدة". فما الذي يخشاه القارئ من أشعار بودلير، مثلا؟ وهو الذي شكلت أشعاره قفزة نوعية من السطحية إلى الغوص في الذات الإنسانية وتعريتها قبل ظهور التحليل النفسي. فالإنسان في أشعاره "عار" أمام نفسه بكل تساؤلاته المباحة وغير المباحة مثله في ذلك مثلما تناوله في الأدب العربي ابن الرومي والمعري وأبي نواس...

الصنعة والمعاناة

فالكتابة تنقسم معمليا لكتابة "صنعة" وكتابة "معاناة ذاتية أو كونية". الأولي يتمكن الكاتب من أدواته ويصوغ بها أعماله حرفيا ولكن الكاتب فيها موضوعيا كمشرح جثث. وهذا لا ينفي بحال قيمة العمل ونجد أمثلة لذلك في الملاحم الكبرى مثل "الإلياذة والأوديسة" و"الكوميديا الإلهية" ولدى كتاب المدرسة "الطبيعية" في الرواية أمثال "إميل زولا".
وهذا التوجه يختلف عن كتابة يعبر فيها الكاتب في ذات الوقت عن تجارب ومعاناة ذاتية وكونية مثلما يتمثل ذلك عن كل من "دوستيوفسكي" و هيرمان ميلفيل و "ويسمانس" و"كافكا" و"هولدرلين" و"ريلكه" و"فرناندو بيسوا" و عشرات من الكتاب والشعراء من كل الثقافات وفي كل العصور.

فالمعاناة والتساؤلات الذاتية للكاتب أمام عصره وأمام الوجود تثري الرؤية الموضوعية بالتجربة الذاتية وتصبغ على العمل الفني درجة أعلى من الصدق في تصوير "الحالة الإنسانية". ففي هذه التجربة "الوجودية" يكتشف الكاتب نفسه ويكتشف الإنسان المتلقي ذاته عبر الكاتب.

فالابداع هو قدرة الكاتب في تخيل شخصيته بقدر ما يستطيع الخيال أن يعينه في "الإمساك" بأبعادها النفسية لتكون اقرب ما تكون تمثيلا للشخصية التي يريد إبداعها. فإذا كان هو من يمر بالمعانة الوجودية ويعبر عنها بلغ ذروة الصدق. فاستلهامه النفسية الإنسانية بعبقرية تجعل منه مرجعا في تحليل السلوك البشري في المواقف التصورية المختلفة. فمعاناته الخاصة كبشر أرهفت حسه في فهم الإنسان نظيره، و حايثها قدرة ملاحظة الإنسان في الواقع المعاش ثم صياغة راقية تبلغ للمتلقي ذات الإحساس.
وذات الشيء في انشغاله بوضع الإنسان في العالم وهمومه وقدرته على ترجمتها والحلم بوضع أفضل للإنسان.
إن قراءة موازية للإبداع الشعري والقصصي وللمذكرات الشخصية عند الكثير من الكتاب تبرهم على ذلك. فهي عند الكاتب الإيطالي "سيزار بافيزا" تبين المعاناة الذاتية للكاتب وانشغاله الوجودي، وليس فقط الأدبي، بمسألة الموت والتي جسدها بانتحاره وهو في قمة مجده. وهذا الانشغال يتجاوز في ذات الوقت الذاتي ليخص الإنسان.

وهذا الموقف نجده علي سبيل المثال لدي "هنري هايني"و"داريو لا روشيل" و"موريس بلانشو" و "ريلكه" و "هولدرين" و"ارتو" و"بودلير" و"موباسان" و و"كافكا" و"جورج بتي" و"بازوليني" و"ميشيما". فلا يمكن محاكمة أي من هؤلاء الكتاب على محتوى أعمالهم الإبداعية وبأنها تختلف مع هذا أو ذاك من القيم الاجتماعية والأخلاقية للمجتمع كل في عصره. فالتمزق الذي يعبر عنه المبدع تكثيف لتمزق قد يحيياه أو غيره كأفراد أو كجماعات وامتلك المبدع قدرة التعبير عنه ونيابة عن البشرية. ولان الإبداع الفعلي ليس بمنشور سياسي فان الخيال والتخيل سبل دفاع الإنسان عن عالم أفضل حتى بتقديمه عالم مبالغ في قبحه كوجه نقيض. وببلوغ القبح ذروته يتجلى نقيضه للعيان كبديل.

غربلة واعية

الإبداع هو حاجة بعيدة في أعماق الإنسان و موغرة في تصوره تترجم عن نفسها كمتعة جمالية. أي الحركة مستمرة من التبادل بين وجود ذي خصوصية ذاتية خالصة ومحاولة الاستحواذ على عالم طبقا لهموم العقل والإرادة.

والإبداع لا يكون رفيعا إلا إذا استحوذ على سيادة داخلية باعتباره نشاط لا يقبل أي قانون خارجي لتحجيمه. فالأنا الإبداعي هو المقياس الوحيد لذاته، والمبرر الوحيد لما يفعله ولما يبحث عنه.

إن ما ينتج عن عدم ترجمة أعمال أدبية أو فكرية كبرى لمجرد أنها تتناول مسالة الجنس أو الأديان أو النظريات العلمية الجديدة هو حرمان غير مبرر من التواصل مع الأدب و الفكر العالميين. وبالتالي استمرار قلة من الذين يجيدون لغات أجنبية في قراءة هذه الأعمال في مكاتبهم المغلقة بعد تغليفها بورق الجرائد حتى لا تسقط سهوا في أيدي أجنبية. و بدلا من إن يدور حوار أدبي وفكري وعلمي داخل مجتمع حول ما يكتب في الثقافات الأخرى ينحصر الأمر على حوار بين قلة تتكلم سرا. وفي ذلك نفي للرشادة واستمرار فرض الوصاية الثقافية. إلى جانب ما هو أهم أي استشعارنا بان الأخر الأجنبي يتمتع بحرية أكثر منا ويمتلك معرفة أرقى من معارفنا التي يحددها القانون والتشريعات والسلطات الروحية. فأي فقر سنظل قابعين فيه خوفا مما لا تهديد منه إذا استطعنا أن نغربل هذا الفكر الأخر ونستبق على ما نحتاجه منه ونترك، بعلم وليس بجهل، مالا نحتاجه.

الحوار المفتوح

شكلت الكتابة وسوف تشكل مسألة للحوار بين من يتفقون مع أفكار كاتب ومن يختلفون حولها أو معها. والقضية هي هل العمل الأدبي بالفعل عملا أدبيا أم لا من وجهة نظر النقد الأدبي ؟ أي ليست المسألة أن بالكتاب محتو لا يتفق مع أفكار هذا أو ذاك من أفراد المجتمع. فالكتابة حول الانتحار أو الإلحاد أو الجريمة أو ..أو ليست دعوة لأي منها. إذ أن "سوفوكل" لم يحرض لقتل الأب والزواج من الأم في "أوديب" و"شكسبير" لم يحرض علي قتل الزوجة بسبب الغيرة في "عطيل" و"دستيوفسكي" لم يحرض علي لعب القمار في "المقامر" أو على قتل الأب في "الإخوة كرامازوف" وسرفانتس لم يدعوا لإعلان الحرب علي طواحين الهواء في "دون كيشوت"... ويمكن أن نستمر في التعرض لعشرات الأعمال في الأدب العالمي دون أن نستنتج في أي منها تحريضا أو دعوة على هذا النحو و إلا مات العمل الأدبي وليدا. أو يصنف حينئذ في نوع آخر من الكتابة تدعي "المنشور" وكما يدل اسمها تحمل دعوة تحريضية لقضية ما ويتم مناقشتها آنذاك بدءا من الأفكار التي تدعوا لها أو تحرض عليها. أفكار في مواجهة أخرى. ومناقشة أعمال المركيز دي ساد في الجامعات الغربية ونشر كتبه لم تحول الغربيين إلى ساديين يحمل كل منهم نسخة في جيبه لتطبيق أفكار المركيز.

ويمكن التذكير بأن قمة العطاء في التاريخ القديم من الكندي إلى الفارابي وابن سينا وابن رشد كانت حرية الفكر والحوار المفتوح بين المدارس بعدما نقلت إليها فكرا يونانيا مخالفا. بل دفعت لمترجميه ثقل وزن مخطوطاتهم ذهبا. ومن هنا جاءت عظمة الإسهام في الحضارة الإنسانية. وأخيرا إن عظماء الشعراء من ابن الرومي وأبي نواس إلى المعري والمتنبي ظل عطائهم الشاهد لبقاء الحضارة والحفاظ على اللغة في قمة تألقها. وكذا فان الاحتفاء بالعطاء مثل ومازال يمثل تكريما لهذا التراث مثلما الحال بشأن "ألف ليلة وليلة" و"رسالة الغفران" و"تهافت التهافت" و"تهافت الفلاسفة" وكل التراث العلمي واستمرار ترجمة ما أهدته الحضارة العربية والإسلامية إلى الإنسانية إلى كل اللغات. فلماذا يبحث البعض عن القطيعة ولما لا نستمر في الإسهام فيما تنجزه حضارة اليوم مثلما أسهمنا في الماضي ؟

توصلت البشرية منذ آلاف السنين إلى ما يؤكده العلم الحديث من العلاقة بين ما هو نفسي وما هو بدني بحيث لا نخطئ القول بأن العقل السليم في الجسم الحر و الجسم السليم في العقل الحر.
لم يكن شك الإنسان في مغزى الحياة في أشعار وأفكار الفلاسفة إلا الطريق الغير مباشر لتحمل فردة الحياة وتعميق فهمها.
أليس ذلك واضحا لدي المعري وأبي العتاهية والخيام ؟ فطرق الشر وتجسيده في إبداع ما، لوحة أو قصيدة أو رواية، ليس إلا موقفا فلسفيا يحض على التفكر في أحوال الإنسان في الوجود.

ستوجد دائما فجوة بين "الأنا المبدع" و "الأنا المجتمع" وعظمة العقل الواثق من ذاته إدارة الحوار بينهما.فعصر الاتصالات الراهن أصبح من المستحيل فيه وضع حجر على فكر إذ كل شيء متاح دون رقيب. فالفجوة بين المبدع والمجتمع لا تبرر تحول الكتب إلى منشورات سرية ويضطر كل المبدعين لترك ديارهم كما يهربون من هؤلاء الثقلاء الذين يقول الشاعر فيهم في القرن الثامن عشر (الشيخ يوسف الشربيني، هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف، دار النهضة العربية، القاهرة، 1963، صفحة 53):

"أرحل من بلادك ألف عام ... مسيرة كل عام ألف ميل
ولو كانت بلادك ألف مصر... ويروى كل مصر ألف نيل
تكدرت الخواطر منك حتى ... قنعنا من ديارك بالرحيل"

حمل المقال من أسفل



في الأدب وقلته !. ..
بقلم مصطفى نور الدين

مشاركة منتدى

1. في الأدب وقلته ! ... بقلم مصطفى نور الدين, 5 كانون الأول (ديسمبر) 2011, 02:44, بقلم محمد سلامة
خالص تحياتي أيها العبقري .

أي رسالة أو تعليق؟